# مُحَمَّدٌ

## خَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ

تصميم الغلاف : **منال بدران**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

دكتور شوقى ضيف

# محمد ﷺ

## خَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ

دار المعارف

# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

الحمد لله الذى أنعم علىَّ أن أكتب الصفحات التالية عن حياة أعظم رسول أهداه الله إلى البشرية، وهيهات أن أوفيه بعض حقّه. وإن حياته لا تخفى منها خافية فى طور طفولته وشبابه حين كان يبتعد عن عبادة الأصنام ولهو الشباب، وفى طور اقترانه بخديجة، وكان اقترانه بها موفّقًا سعيدًا، وعاشا حياة زوجية هنيئة، شغل نفسه فيها بالتجارة، وأكبرت قريش فيه الصدق والأمانة ولقّبْته «الأمين»، ووصفته خديجة حينئذ قبل مبعثه بأنه كان يصل ذوى الرحم ويكفل الضعيف ويكسب الفقير ويكرم الضيف ويعين على نوائب الحق. وإذا كانت هذه خصاله قبل مبعثه، فما بالنا به وقد أصبح نورًا مضيئًا لأمته وله يقول الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، فهو دائما لأمته رحمة ورفق ورأفة لا يذم أحدًا ولا يعيبه أى عيب ويعفو ويصفح حتى عن أعدائه.

ولما أنزل الله عليه الوحى وأخذ يدعو قريشا إلى توحيد الله ونبذ الأوثان والأصنام التى توارثتها عبر مئات السنين هالت الكثرة من أهلها دعوته، وتسلّلت منها فئة آمنت بوحدانية الله ورسالة رسوله المصطفى. وشبّت معركة قاسية من إيذاء مشركى قريش للرسول وأتباعه المؤمنين، ولما اشتد أذاهم أمر الرسول أتباعه بالهجرة إلى أرض الحبشة فى السنة الخامسة من مبعثه، وفيها أَمِنوا على دينهم عند ملك الحبشة المسيحى وأقاموا بخير دار. ولم يهاجر الرسول معهم فقد بقى بمكة يبلغ رسالته متلقيا أذى قريش دون جزع، وفى ذلك تتضح رحمته بأصحابه وتفانيه فى إبلاغ عقيدة الإسلام. وبينما قريش تشتد فى إيذاء الرسول والمؤمنين إيذاء عنيفا إذا وفْدٌ من أشرافها يلقى أبا طالب عم الرسول قائلين له:

إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا لا نصبر على تسفيه ابن أخيك أحلامنا وعيب آلهتنا. فإما أن تكفّه عنا وإما أن ننازلك وإياه فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. وذكر أبو طالب ما قالوه للرسول. فقال له فى إصرار: "والله – يا عم – لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله – أو أهلك دونه – ما تركته". فقال له أبو طالب: "قل ما أحببت، فلن أسلمك – والله – لشئ أبدا". ومضت الأيام وقريش لا تكفُّ عن أذاها للرسول والمسلمين.

وتُوفّى أبو طالب كما توفيت بعده سريعا خديجة فاشتدّ بالرسول البلاء من حرمانه منهما. ورأى أن يذهب إلى ثقيف بالطائف على بعد نحو خمسين ميلا من مكة يدعو أهلها إلى دين الله لعلهم يجيبونه، ولقى نفرا من سادتها لم يحسنوا لقاءه وهزئوا به، فانصرف عنهم، وسلطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم يرشقونه بالحجارة حتى دميت رجلاه، وعاد إلى مكة داعيا أن يخرج من أصلاب ثقيف من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا. وأخذ الرسول يعرض نفسه ودينه على القبائل فى مواسم الحج فيجد منهم ازورارًا إلا ما كان من أهل يثرب فإن نفرًا منهم بايعه على دينه ونصرته، وأرسل معهم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ليدعُوَا إلى الإسلام، وانتشر فى يثرب، وجاء منها إلى الرسول فى موسم الحج التالى وفد كبير، فبايعوه بيعتهم الكبرى، وأمر الرسول – بنظره الصائب – الصحابة بالهجرة إلى المدينة، ثم هاجر إليها، وبدأ فيها ببناء مسجده متخذًا منه دار عبادة وتعليم وقضاء ومشورة للمسلمين.

ومن بواكير أعماله فى المدينة التى تدل على أنه كان رجل دولة وسياسة أنه كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار سماهما فى صدره أمة، وكان ذلك إرهاصًا واضحا ببدء تكوين الأمة الإسلامية التى أصبحت – فيما بعد – إمبراطورية ضخمة، وضمّن هذا الكتاب دستورًا للأمة الإسلامية الناشئة. وحرىّ برجال القانون فى عصرنا أن يتدارسوه ويشرحوا بنوده القانونية المُثْلَى. وقرّر الدستور أن اليهود فى المدينة جزء من الأمة، وأقرّهم على دينهم عملاً بقوله تعالى: ﴿لاَ

إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ﴾ وأقرّ – فيما بعد – مجوس الخليج العربى عبدة النار على دينهم الوثنى، وبذلك تقرّرت حرية العقيدة فى الأمة الإسلامية إلى أقصى حد. وجعل الرسول للأمة الإسلامية مبدأين أساسيين: مبدأ الأخوة كما قال الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وبقول الرسول: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه"، ومبدأ المساواة التامة أمام الله فلا وسطاء بين الناس والله من كهنوت كما فى اليهودية والمسيحية، والناس متساوون دون أى جاه أو عصبية أو قومية أو طبقية ولا فرق بين عربى وأعجمى ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى.

وفُرضت الزكاة وما يتبعها من الصدقة، وبهما حلّ الإسلام مشكلة الفقراء والأغنياء إلى الأبد. وجعل الله الكعبة قبلة الصلاة فى الفرائض الخمس اليومية، وبذلك وحّد بين المسلمين فى جميع بقاع الأرض. وهاجم المستشرقون الرسول لكثرة حروبه فى الجزيرة وكانت ضرورية لنشر الإسلام، ووُضعت لها سبعة قوانين رحيمة لم تعرف الأمم الغربية فى حروبها أحدها حتى اليوم، واتضح أن ما سُمِّى سرايا حربية إنما كان فى جملته بعوثًا للدعوة إلى الإسلام.

ويكرِّر الله فى القرآن أنه موجَّه للجنس البشرى جميعه كما فى قوله لرسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وكان الرسول شديد الإيمان بذلك مما جعله يبشّر أصحابه مرارًا بأنهم سيفتحون العالم، كما جعله يدعو الملوك من حوله إلى الإسلام: ملك إيران وإمبراطور بيزنطة وحاكم مصر وملك الحبشة. وإن ما فى تعاليم الإسلام من الحرية الدينية المكفولة لجميع الشعوب، وما فيها من العدل والإخاء والمساواة كل ذلك يهدف إلى وحدة الشعوب وأنه دين عالمى. ولى فى عالميته كتاب تُرجم إلى الإنجليزية والفرنسية.

وحمل بعض المستشرقين على زواج الرسول من عائشة لخبر كاذب يقول إنها كانت فى سن التاسعة، والثابت أنها كانت فى نحو العشرين من عمرها. وحملوا على تعدد زوجاته وكنّ جميعا أرامل ما عدا عائشة، وتزوج بغير واحدة

منهن – كما بيَّنْت في غير هذا الموضع – لأسباب اجتماعية وسياسية. وأكرم الإسلام المرأة إلى أبعد حد، إذ جعل الزواج بين الرجل والمرأة ميثاقا يُعقد أمام الله، كما جعل للنساء حقوقًا على الرجال اجتماعية ومالية لم تتوفر لهن عند أمة غربية حتى اليوم. ومن حسن معاملة الرسول للنساء اليهوديات أنه بعد انتصار رجال جيشه على يهود خيبر حرَّم عليهم زواج المتعة باليهوديات، وفي ذلك دليل قاطع بأنه محرَّم في الإسلام.

ومن المواقف الحضارية للرسول ﷺ أن كثيرين من أهل مكة كانوا يعرفون الكتابة بسبب عملهم في التجارة، وكان من يعرفونها في المدينة قليلين لاشتغالهم بالزراعة، وكثر أسرى قريش في غزوة بدر، وكان فداء الأسير القرشي من ألف إلى أربعة آلاف، فجمع الرسول من الأسرى من يعرفون الكتابة، وقال لهم إنَّ كلاً منكم يستطيع أن يفدى نفسه من الأسر بتعليم عشرة من غلمان المدينة الكتابة، وتعلمها منهم كثيرون وهو عمل حضارى عظيم.

ومن أعمال الرسول ﷺ البالغة الرحمة أنه فتح مكة قهرًا ولم يحلّ فيها السبى والغنيمة، إذ قال لا سبى ولا غنيمة بمكة، وحارب بعدها هوازن، وكان سيدها وقائد جيشها مالك بن عوف أمر الرجال باصطحاب نسائهم وأولادهم معهم، فلما هُزِموا أسر جيش الرسول النساء والأولاد واصبحوا سبيًا، وجاء الرسول وفْدٌ منهم يُعلن إسلامه، فردّ عليهم النساء والأولاد.

وظل الرسول ﷺ طوال حياته في مكة والمدينة يعيش معيشة زهد وتقشف، ومنذ موقعة خيبر تكثر أمواله، وكان يجعلها لإعداد جيشه وللفقراء والمساكين، وحياته لا تتغير لا هى ولا حياة زوجاته، فدائما زهد وشظف، ومرّت الأيام وهن يتحمَّلْنها، حتى إذا تكاثر مجئ الأموال بعد خيبر وفُتِحت مكة صارحنه بأنهن منصرفات معه عن متاع الدنيا، وأنه ينبغى أن يتيح لهن شيئا من الترف وزينة الحياة، وغضب واعتزلهن شهرا ونزل القرآن يخيِّرهنَّ بين قبول معيشته الزاهدة وفراقه لهن، ورضين حياته وحياتهن الزاهدة المتقشفة، وانتقل إلى الرفيق الأعلى وهو مضطجع على حصير.

وكان دائما يدعو أصحابه إلى أن يكونوا عدولا رحماء بالإنسان والحيوان وأن يكون إيمانهم عقلانيًا بصيرًا بتدبير الله للكون الدال على وحدانيته، وأن لا يؤمنوا بخرافة أو سحر أو تنجيم أو كهانة أو شعوذة. وحدث أن كُسِفت الشمس يوم وفاة ابنه إبراهيم فقال بعض الصحابة إنها كسفت حزنا عليه، فجزع لهذه الخرافة وأسرع فخطب الصحابة قائلا: "أيها الناس: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يكسفان لموت أحد".

ولم يحط الرسول ﷺ نفسه بأى هالة قدسية طوال رسالته، ولا حاول أن يقوم بمعجزة سوى معجزة القرآن، ودائما يقرِّر أنه ليس إلا بشرا مثل أى صحابى، ويعمل مع الصحابة نفس أعمالهم دون أى ترفُّع، فقد نقل معهم حجارة مسجده فى بنائه، وحفر معهم الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب، وكان لا يستشعر أى عظمة ويقول للصحابة إنى لا أختلف عنكم فى شئ، وكان يمنعهم من الوقوف له تجلّةً حين يخرج عليهم، كما كان يمنعهم من الإسراف فى الثناء عليه حتى لا يقعوا فيما وقع فيه النصارى من تأليه عيسى بن مريم وقولهم إنه ابن الله. ودائما كان يقول لأصحابه إنما أنا عبد مثلكم من عباد الله آكل كما تأكلون وأجلس كما تجلسون.

ورجعت فيما كتبت من الصفحات التالية إلى القرآن الكريم ففيه تشريعات الدين وكثير من الغزوات، وتوقفت فى الفصل الثالث عشر لكتابة كلمة عن القرآن وذكرت فى إعجازه وجها لم يتنبه إليه الأسلاف، ورجعت إلى كتب الحديث وإلى كتب السيرة النبوية وفى مقدمتها سيرة ابن هشام والطبقات الكبرى لابن سعد وإلى كتاب عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع للمقريزى. ومما رجعت إليه من المؤلفات الحديثة كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل وكتاب نور اليقين فى سيرة سيدنا محمد سيد المرسلين للشيخ محمد الخضرى، كما رجعت إلى كتابات المستشرقين. وكل ما حاولت كتابته عن الرسول العظيم وحياته إنما هو إلمامة قاصرة بجوانب سيرته وما أعظمه من رسول

اختاره الله لإبلاغ خاتمة رسالاته الإلهية إلى البشرية لسعادتها فى الدنيا والآخرة. صلوات الله وسلامه عليه إلى أبد الآبدين. والله أسأل أن يلهمنى السداد فى الفكر والقول والعمل بمنّه وكرمه.

القاهرة فى ١٥ من يناير سنة ٢٠٠٠

شوقى ضيف

# تمهيـــــد

بدأتُ الحديث عن سيرة الرسـول ﷺ العطرة بحديث ذكرتُ فيه الموقع الجغرافى للجزيرة العربية وعصرها الجاهلى وما كان به من وثنية وكهانة، كما ذكرتُ العالم فى عصر البعثة النبوية، واليهودية والنصرانية والحنيفية دين إبراهيم. وبالمثل تحدثتُ فى إيجاز عن إبراهيم وبنائه مع ابنه إسماعيل للكعبة وانتقال سِدانتها إلى قبيلة جُرْهم فقبيلة خُزاعة وتحوُّلها الى قُصَىّ وقريش، وازدهار التجارة بمكة، وإخفاق غزوة أبرهه الحبشى لها، وما كان من ولائها على العرب لأنها حامية الكعبة وما بها من أصنامهم المقدسة .

وانتقلتُ إلى الحديث عن سيرة الرسول ﷺ من مولده إلى نهاية حياته مما يميِّزها عن سيرتى رسولى اليهودية والنصرانية، إذ لا نعرف عن حياة موسى إلا أشياء قليلة ذكرتها التوراة وذكرها القرآن قبل مبعثه، ولا نعرف شيئا عن أيامه الأخيرة قبل موته ولا موضع قبره، وعيسى عاش ثلاثين سنة قبل مبعثه ولا نكاد نعرف عنها إلا ما ذكر القرآن من كلامه فى المهد، وإلا بعض أخبار غامضة مثل رحلته مع أمه مريم إلى مصر. أما الرسول ﷺ فحياته بجميع تفاصيلها مسجَّلة عند مؤرخى سيرته، وهى تذكر نسبَه الشريف من جهة أبيه عبد الله بن عبد المطلب كبير سادة قريش، وبالمثل من جهة أمه آمنة بنت وهب القرشية، ولم تطل مدة زواج عبد الله بآمنة إذ توفى سريعا بيثرب فى عودته من تجارة له بالشام فى أثناء حمل آمنة بابنها .

وتقدمت بها أشهر الحمل، ووضعته فى يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول وأرسلت توًّا إلى جدّه عبد المطلب تبشّره به ، فجاء إليها مسرورا وسماه محمدا. ويذكر مؤرخو السيرة بعض خوارق حدثت فى ميلاده أو قبله، إرهاصًا بأنه الرسول المنتظر، ولم أورد ذكر شىء منها لأنها رُوِيت بعد زمن طويل من

ميلاده، ولها نظائر تُذكر في صباه مثل شق الملائكة لصدره في طفولته كما تُذكر له خوارق في رحلته إلى الشام مع عمه في الثانية عشرة من عمره مثل تظليل الغمام له ومَيْل شجرة بظلّها عليه وبشرى بحيرا بنبوته. وكل تلك المعجزات الحسّية يُراد بها التنبُّؤ بأنه رسول الأمة، ومعروف أنه لم يعتمد في رسالته على معجزات حسية تماثلها. ومن أعظم معجزاته في نبوّته أنه لم يأت بمعجزة سوى القرآن الكريم بتعاليمه الإلهية وبلاغته الباهرة وإشعار قارئه بأنه في الحضرة الإلهية.

وكانت أم محمد آمنة مُتعبة، فأرضعته أسبوعا ولم تلبث جارية عمه أبى لهب أن ساعدتها في رضاعته. وكان أشراف مكة يعشون بمن يولد لهم مع مراضع بدويات كنّ يَفِدن على مكة لحمل الرُّضّع إلى بواديهم وتنشئتهم فيها، وجاءت مكة مراضع بنى سعد واختارت آمنة منهن لطفلها حليمة السَّعدية. وظل محمد في بادية بنى سعد حتى بلغ خمس سنوات، وكان لهذه النشأة البسيطة في البادية أثرها في محمد إذ تعود أن يطيل النظر في الكون من حوله: في السماء ليلا وما يبزغ فيها من قمر ونجوم ونهارا وما ترسل فيه الشمس من أشعة ساطعة. وكان يعيش معيشة حرة خالية من أى قيد، وينام مبكرا ويصحو مع أشعة الفجر الرمادية ويُطعَم طعاما بسيطا من اللبن والتمر أحيانا. وعاد إلى مكة وشوارعها الضيقة، ولم يعد ينام في خيمة بل في بيت مرتفع. وحملته أمه وهو في السادسة من عمره إلى يثرب لزيارة أخوال أبيه، ورأى فيها النخيل والزروع والبساتين وقنوات المياه، والناس تختلف حياتهم الزراعية عن حياة بادية بنى سعد تمام الاختلاف. وفي عودته توفيت أمه في الطريق، ورجع إلى مكة محزونا. ولم يلبث أن توفى جدُّه وكفله عمه أبو طالب وعاش مع أبنائه. وأخذ يتردد على أسواق مكة، وكان عمه تاجرا يتردد على الشام فسأله أن يصحبه في تجارته إليها وصحبه، وهو في الثانية عشرة من عمره.

وما بلغ محمد هذه السِّنّ حتى اتسعت مداركه، فقد رأى في طفولته حياة البادية وعاشها، ورأى في صباه بيثرب حياة الزرّاع وعاشها، ورأى في مكة حياة

التجار وعروضها وعاشها، ورأى مدن الشام وحدائقها. وكل ذلك أتاح لمحمد معرفة بحياة البدو والزرّاع والتجار وحياة مدن الحجاز ومدن الشام. ويمكن أن نجعل رؤيته حِلْف الفضول في دار عبد الله بن جُدْعان سيد بنى تَيْم ختام المرحلة الأولى من حياته، إذ رأى بنى هاشم وبنى المطلب وعشيرتى زهرة وتيم يجتمعون عند ابن جدعان ويعقدون حلفا سمّوه حلف الفضول، تعاقدوا فيه أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم ممن دخلها إلا أعانوه على من ظلمه حتى تُردُّ مظلمته، وقد شهده الرسول ﷺ وهو غلام، وامتدحه وهو رسول، وقال: "ما أحبّ أن لى به حُمْر النّعم، ولو أنى دعيت فى الإسلام إليه لأجبت".

والمرحلة الثانية من حياة الرسول مرحلة شبابه، وكان فى أوائلها يَرْعى غنم أهله وأهل مكة، وكأنما استعادت ذاكرته أيام نشوئه فى بادية بنى سعد ورعيه فيها غنم أبويه من الرضاع، ونظن ظنّا أنه لم يطُل مقامه فى الرَّعْى، وأنه انتقل إلى العمل فى التجارة إذ كانت أسرته أسرة تجّار. وجعله عمله فى التجارة يَفِد على أسواق مكة، ورأى فى سوق عكاظ قسّ بن ساعدة الإيادى أسقف نجران على بعير يعظ الناس ورَوَى بعض موعظته. ووصلته التجارة بالسيدة خديجة بنت خويلد وكانت ذات شرف وجمال ومال كثير، وقد كان يتجر لها فى مالها بعض رجال قريش، وقدموا لها محمدا فاستأجرته فى بعض تجارات صغيرة، فجاءها بربح كثير. وعرف عمُّه أبو طالب أنها تعدُّ لتجارة لها مع قوافل الصيف، فسألها أن تعهد بها لمحمد فرحّبت به، وعاد من تجارته لها بربح وافر لم تعهده، فاغتبطت وزاد فى اغتباطها أن ماجاء به من عروض التجارة ربحت فيه أيضا ربحا وافرا. وازداد إعجابها به، وتمنّت فى نفسها لو اقترن بها هذا الشاب القرشى الشريف المفرط فى الصدق والأمانة. وكانت ذات عقل راجح، فعرّفت صديقة لها برغبتها فى الاقتران به، ولقيته، ووجدت منه قبولا حسنا، فعرّفتها والتقت به، وقالت له: يا بن عمّ إنى قد رضيت بك لقرابتك إلىّ ومكانتك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، وهى كلمات فى استقبال محمد وأنها ترضى به زوجا تدلّ على سداد عقلها، وتمت مراسيم الزواج سريعا. وعاش الزوجان المتحابان

معيشة هنيئة، وأسلمت له تجارتها وتدبير مالها، ونال في سرعة احترام قريش له، وذلك لصدقه في التعامل وشدة أمانته حتى لقّبوه بالأمين. وكانت خديجة بجانب ثرائها ذات جمال وحصافة عقلية ممتازة، فعاشت سعيدة مع محمد وملأت عليه دنياه سعادة، ورزقا في السنوات العشر الأولى من زواجهما بستة أبناء: ولدين توفيا سريعا وأربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

وكان أهم حادث له في هذه المرحلة السعيدة من حياته بناء قريش الكعبة واختصام عشائرها فيمن يكون لها شرف حَمْل الحجر الأسود المقدس إلى موضعه، واشتدّ الجدال بين العشائر في ذلك طوال أربعة أيام، واتفقت العشائر على أن تجعل الحكَمَ بينها أول داخل من باب المسجد، فكان أولَ من دخل منه محمد، فلما رأوه قالوا – بصوت واحد – إنه الأمين، ونحن نرتضيه. فطلب رداء واسعا وضع الحجر فيه، وطلب إلى كل عشيرة أن تحمله من طرف، فحملته العشائر إلى موضعه، ووضعه بنفسه فيه. والحادث يدلّ على مكانته في قريش وتلقيبهم له بالأمين وحسن رأيه ودقة حكمه.

وأخذ محمد في نهاية هذه المرحلة الثانية السعيدة من حياته يتحنّث أى يتعبّد لربه طوال شهر رمضان من كل سنة، واختار لتحنُّثه واختلائه بعبادة ربه غارا بجبل حِراء ، وهو يبعد عن مكة بنحو ثلاثة أميال. ولم تكن خديجة زوجة ثرثارة فتركته يخلو فيه لنفسه لعبادة ربه كما يريد، ودائما كانت تعدّ له الزاد أياما وترسله إليه، وهو غارق في عبادته لربه، وتأملاته في الكون من حوله. وتقول السيدة عائشة إن أول ما كان من تباشير الوحي رُؤًى صادقة كان يراها في النوم، ولا يلبث أن يراها واقعة في اليقظة.

وبلغ الأربعين من عمره، فأيقظه من نومه في السابع عشر من رمضان ملاك في صورة رجل واقف أمامه وفي يده صحيفة وبادره بقوله: ﴿اقْرَأْ﴾. فأجابه: ما أنا بقارئ. فضمّه إليه وعصره عصرًا شديدًا حتى بلغ منه الجهد، وأرسله وقال له ثانية: ﴿اقْرَأْ﴾. فقال: ما أنا بقارئ. فعصره عصراً شديداً حتى بلغ منه

الجهد، ثم أرسله وقال له: ﴿اقْرَأْ﴾. فقال له: ماذا أقرأ؟ فقال له: ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ. خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَم يَعْلَمْ﴾. وقرأ الآيات وانصرف الملاك. وفزع محمد فزعا شديدا، وانطلق إلى خديجة بمكة وأنبأها بالحادثة وهو يرتجف وَجَلاً، فهل ما رآه بغار حِراء شيطان لكهانة أو ملاك لنبوة؟ وطمأنته خديجة، وقالت له: أبشِرْ يا ابن عمّ إنك نبيّ هذه الأمة. وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان متحنّفا – وقيل بل كان نصرانيا – وقصّ عليه الرسول الحادث، فقال له: إن كنت صدقتنى فإن هذا هو الناموس (أى جبريل) الذى كان ينزل على موسى. وبشره بالنبوة. وانقطع الوحى عنه فترة قليلة وعاد إليه الوحى وتتابع.

ويمضى الرسول فى المرحلة الثالثة من حياته يدعو إلى الإسلام سرًّا طوال ثلاث سنوات معرِّفًا من يدخله بتعاليمه الكبرى، وفى مقدمتها الإيمان بوحدانية الله والصلاة له والإيمان باليوم الآخر وبالملائكة والرسل ورسالته النبوية، ودخله صفوة من المسلمين الأولين فى مقدمتها أبو بكر. وأُمر الرسول بالدعوة إلى الإسلام جهرا، وبادرت كثرة قريش بمعارضته، وكان أبو جهل أشدهم عداء له، ووسَّطوا له عمه أبا طالب ليثنيه عن دعوته، فقال قوله المشهور: "والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته". وممن كان يبادره بالعداوة عقبة بن أبى مُعَيْط وآذوا أصحابه المستضعفين من العبيد والإماء إيذاء عنيفا، وكان أبو بكر الصدِّيق يشتريهم ويحررهم.

وعلم عمّ الرسول حمزة وكان من أبطال قريش وفرسانها أن أبا جهل آذى الرسول عند الصفا فغضب غضبا شديدًا، وجاء إليه فضربه بقوسه فشجَّه شجَّة قوية، وأعلن له ولمن حوله أنه على دين محمد، وذهب إلى ابن أخيه فأعلن إسلامه، وعز الإسلام به، وكفَّت قريش عن بعض ما كانت تؤذى به الرسول. ولما اشتد إيذاء قريش للصحابة أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة (المسيحية)، فلقيهم النجاشى لقاء كريما، وأقاموا عنده فى أحسن جوار.

ومضى الرسول فى دعوته إلى عقيدة الإسلام. وأدت الظروف عمر بن الخطاب أن يذهب إلى بيت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد غاضبا لما علم من إسلامهما، ورأى عندهما صحيفة فيها أوائل سورة الحديد، فقرأها وشعر فى أثناء قراءتها أنه فى الحضرة الإلهية، فأعلن إسلامه مما يشهد بهذا الوجه من إعجاز القرآن، فإن من يسمعه يشعر كأن الله حاضر معه فيستجيب له. وذهب إلى الرسول معلنا إسلامه.

وتقول كتب السيرة النبوية أنه شاعت حينئذ قصة الغرانيق وأن الرسول قرأ فى الكعبة سورة النجم على جمع فيه بعض مشركى قريش، فلما بلغ قول الله فيها: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ أتبعها بقوله: تلك الغرانيق العُلا، وإن شفاعتهن لتُرتجى. والغرانيق جمع غرنوق: من طير الماء. ومعاذ الله أن ينطق الرسول بهاتين الكلمتين فى وصف آلهة قريش الوثنية. وهى قصة دسَّها على السيرة النبوية الطاهرة بعض أعداء الإسلام ورواها عنهم بعض مؤرخى السيرة فى غفلة من أن الرسول – كما قال الله فى نفس سورة النجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾، وقال فى سورة المائدة: ﴿واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فكيف يكون معصوما بل كيف يكون رسولا وينطق كفرًا؟ وما أشدها من فرية كاذبة.

وبلغ من عداء قريش للرسول ﷺ أن اتفق من بها من المشركين على مقاطعة محمد ومن يحميه من بنى هاشم وبنى المطلب وأن تعمل قريش على جوعهم فلا يشترى أحد منهم شيئا لهم ولا يبيع أحد منهم لهم شيئا، ولا يتزوج أحد منهم من قريش. وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها فى الكعبة لأول سنة سبع من البعثة وأمروهم بالنزول فى شعب أبى طالب بالجبال المحيطة بمكة. وظلّوا فى الشعب سنتين إلى أن بادر نفر من قريش إلى الصحيفة فنقضها، وعاد الرسول وبنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة.

وعادت قريش إلى إيذاء الرسول وصحبه، وتحدَّته بطلب معجزات حسية كما تشهد بذلك أواخر سورة الإسراء. وتوفى أبو طالب وخديجة، ورأى محمد

أن يعرض الإسلام على كبراء الطائف من ثقيف فأغروا به عبيدهم وسفهاءهم يصيحون به ويرشقونه بالحجارة، فعاد إلى مكة. وكأنما أراد الله أن يعزِّيه عن هذه الحادثة، فكتب له حادث الإسراء ليلا إلى بيت المقدس على البراق مع جبريل وصلاته فيه، وكتب له أيضا حادث المعراج وصعوده فيه إلى السموات السبع ولقاء بعض الرسل، وهبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء، وصلى بهم فيه. ويزعم بعض المستشرقين وأعداء الرسول أن قصة الإسراء والمعراج قصة خرافية، ورددتُ على ذلك بأن القرآن أشار إليها فى مطلع سورة الإسراء. وكانت السيدة عائشة تقول إن الإسراء والمعراج جميعا كانا بالروح فقط، واختلف العلماء هل كانا بالروح فقط، أو كانا بالروح والجسد معا، وسواء كان الإسراء والمعراج رحلتين فى المنام أو فى اليقظة فلا جناح على من يعتقد أحد الرأيين، ويشهد للرأى بالروح فقط التنويم المغناطيسى ويشهد للرأى بأنهما كانا بالجسد والروح معا انتقال الأصوات فى هذا العصر على الأثير مسافات بعيدة فى نفس اللحظة، وانتقال الأشخاص فى الرحلات الفضائية إلى كواكب بعيدة عن الكرة الأرضية بعدا هائلا، والله سبحانه قادر على أن يجعل الإسراء والمعراج لرسوله فى المنام أو فى اليقظة. وصلاة الرسول بالأنبياء فى الإسراء والمعراج ترمز إلى وحدة الديانات السماوية وأنها انتهت إلى دين الإسلام الذى يهيمن عليها والذى يضع عن اليهود والنصارى ما يثقلهما فى ديانتيهما من بعض الأوامر والنواهى الشديدة كما ذكر الله ذلك فى سورة الأعراف.

ومضى الرسول يعرض نفسه والإسلام على القبائل فى مواسم الحج، والتقى فى أحد المواسم بستة من الخزرج من أهل يثرب وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وعادوا إلى يثرب، وأخذوا يدعون قومهم من الخزرج والأوس إلى الإسلام. واستدار العام وأقبل موسم الحج ، فقدم فيه من الأنصار اثنا عشر رجلا: عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، ولقيهم الرسول ﷺ وأعلنوا إليه إسلامهم، وبايع كلاًّ منهم على أن لا يشرك بالله شيئا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصى الرسول فى

معروف. وبعث الرسول معهم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ليعلّما من أسلم من يثرب القرآن وليدعُوَا إلى الإسلام. وقاما بمهمتهما خير قيام، حتى إذا استدار العام وجاء موسم الحج قدم على الرسول من يثرب ثلاثة وثمانون رجلا وامرأتان وبايعوه البيعة الثانية الكبرى.

وبهذه البيعة الكبرى تنتهى المرحلة الثالثة من حياة الرسول التى عُنى فيها بدعوة أهل مكة إلى الإسلام طوال ثلاثة عشر عاما، ودخلته طائفة من قريش، وكانوا قليلين بالقياس إلى كثرتها التى ظلّت معارضةً فى عنف للإسلام. ومنذ هذه البيعة الكبرى من أهل يثرب أخذ الرسول يأمر أصحابه بالهجرة إليها، وهاجر مثلهم وبدأ المرحلة الرابعة من حياته.

وكانت معه فى مكة فئة قليلة فأصبحت معه مدينة كبيرة وسكانها من الخزرج والأوس ومن نزل بها من المهاجرين، وكان أول ما عُنى الرسول به بعد استقراره فى يثرب بناء مسجده، وكان ينقل إليه الحجارة وجعل قبلته من اللّبِن وسقُفه من الجريد وعمُده من جذوع النخل، ولما أتم بناء المسجد جعله دار عبادة وعلم وقضاء وتشاور. وبنى بجواره بيوته: وكانت تسع حُجَر وكان سقفها من جريد النخل. وكان بجوار المدينة ثلاثة حصون لثلاث قبائل يهودية هم بنو قَيْنُقاع وبنوالنّضير وبنو قُرَيْظة، نزلوا بها حين طردهم الرومان من فلسطين. ورأى الرسول ببصيرته النافذة أن يسمِّى أتباعه فى يثرب من المهاجرين والأنصار أمة، وهو عمل من أعظم أعماله وكان بدء تكوُّن الأمة الإسلامية ، التى أصبحت فيما بعد من أمم العالم الكبرى. وبحق جعل عمر – فى خلافته – الهجرة بدء تاريخ الإسلام. وسرعان ما جعل الرسول لهذه الأمة دستورا فيه المسلمون من المهاجرين والأنصار أمة واحدة يتكافل أفرادها. ويقرِّر الدستور حرمة الحياة وتحريم القتل وجعل عقوبته القصاص لا الأخذ بالثأر، كما يقرر أن اليهود فى المدينة جزء من الأمة وبقاءَهم على دينهم وأموالهم، وبذلك أقرَّ الدستور حرية العقيدة، وهو جدير بأن يتدارسه رجال القانون فى عصرنا ويشرحوا مبادئه العالمية العظيمة.

وبذلك أصبح للإسلام أمة فى الأرض، وستتّسع فى عصر الرسول ﷺ حتى تشمل الجزيرة العربية جميعها، ثم يتضاعف اتساعها فيما بعد حتى تصبح إمبراطورية إسلامية من أواسط آسيا شرقا إلى إسبانيا غربا. وأخذ الرسول يعيش بيثرب فى أمة إسلامية خالصة، ووضع لها مبدأين :مبدأ الإخاء الصادق بين المسلمين ومبدأ المساواة التامة.

فأما الإخاء فقد قال الله فيه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقال الرسول ﷺ : "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى". ومن أعظم صوره مؤاخاة الأنصار من الخزرج والأوس للمهاجرين القادمين عليهم من مكة ، وقد تركوا فيها سكناهم وأموالهم، فوسعوهم فى بيوتهم وأشركوهم فى أموالهم وتوارثوها معهم دون ذوى الرحم من الأقارب إلى أن ألغاها الله بعد موقعة بدر فى قوله: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فى كِتَابِ اللهِ﴾. وبقيت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فيما عدا التوارث، إذ ظلت بينهما بقية حقوق الأخوة وخاصة المواساة.

وأما المساواة فقد دعا الرسول والإسلام بقوة إلى أن أفراد الناس متساوون جميعاً أمام الله، ولا وسيط بينهم وبينه من أحبار وقساوسة وأساقفة ورهبان وغيرهم، وألغى الإسلام ما وجده من طبقات فى الأمة بإيران والهند، فلا سيد ومسود ولا قومية ولا عصبية ولا طبقية. ويقول الرسول فى خطبته بحجة الوداع: "لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى ،ولا فضل لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى". وبذلك ألغى الإسلام – لأول مرة فى التاريخ – الجنسية والعنصرية والقومية والعصبية واللون، ولا انتماء إلا للدين.

ولم يستشعر الرسول طوال رسالته أى هالة قدسية أو زمنية من سلطان أو مُلك، وكان يردّد للصحابة أنه بشر وأنه لا يفترق عن أى صحابى، ومن قوله: إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد. وكان